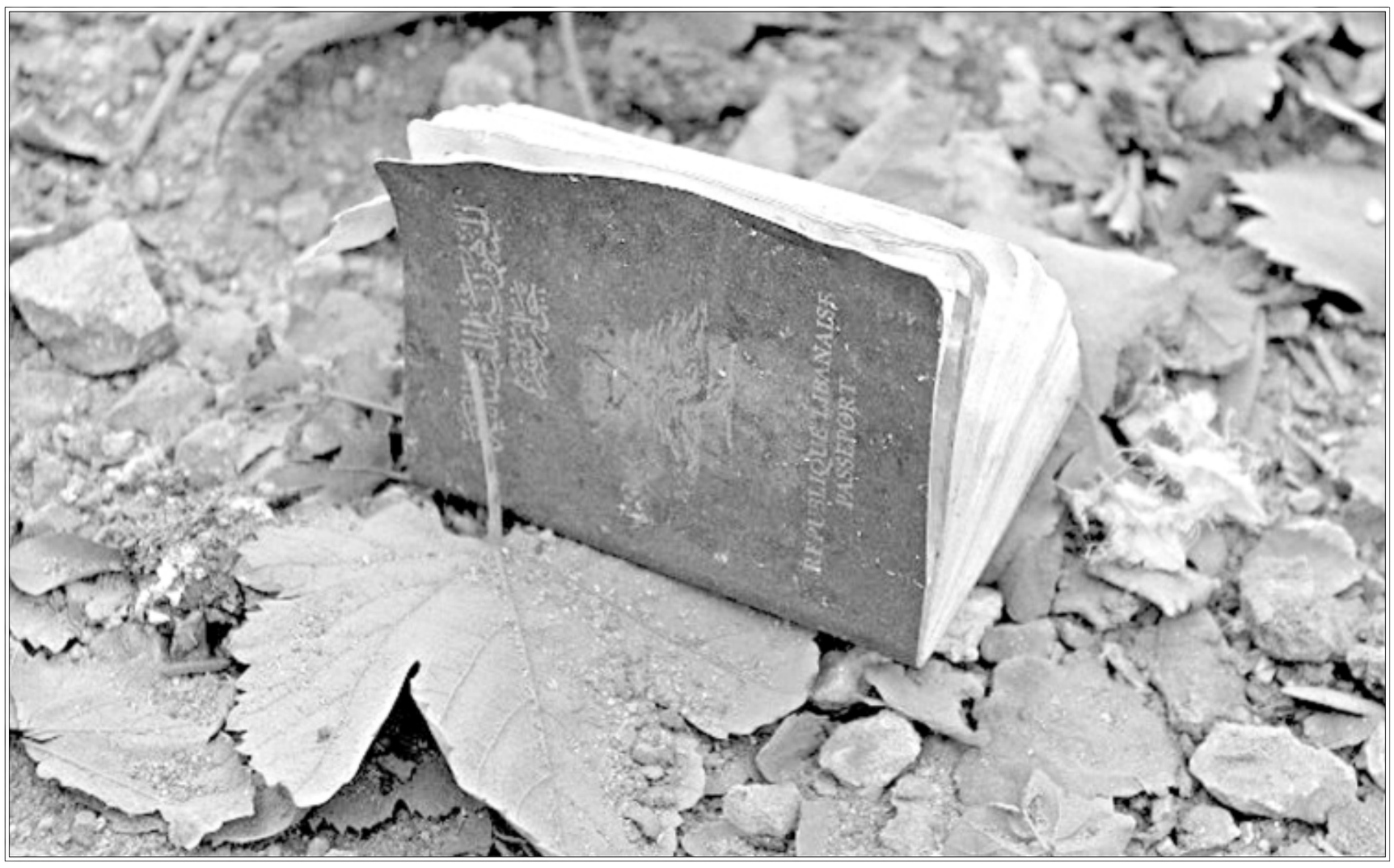

كأن الزمن عاد إلي الوراء اكثر من عشرين عاما:

بيروت: بين زمنين وحربين

لنا عبد الرحمن *

وكأنني أعيش كابوسا مرعبا لا ينتهي.. بدايته حلم جميل.

كانت بيروت مشرقة... كما لم تكن من قبل... كان هناك فرح واحتفاء ينبض بالحياة.

سياح وافدون لزيارة لبنان.

أبناء عادوا لرؤية أهاليهم

ثم المهرجان... الجميع كان فرحا بمهرجانات بعلبك، وحضور فيروز هذا العام.

كان هناك كرنفال صيفي ملون ومبهج، والكل ينتظر صيفا صاخبا بالبهجة.

حلاوة لذيذة تراها على وجوه الناس المستمتعة بالغذاء على ضفاف «البردوني» في زحلة، أو التي تتشمس على شاطئ البحر أو تسير في قلب العاصمة.

مواعيد منتظرة مع بيروت.. صارت رمادا، ومسرحية «صح النوم» التي كان من المفترض أن تعرض على مدرجات بعلبك صارت قيامة الحرب.

في ليلة واحدة عادت بيروت للعدم

ما أهون الدمار....

ما أسهل الخراب.....

في ليلة واحدة تحولت بيروت الى مدينة منكوبة...

في الساعة الثالثة والنصف صباحا من اليوم الثاني لبدء المعركة استيقظنا على صوت الانفجارات الهادرة التي يتأكد قربها من هدير الاصوات التي تهز الأرض وتكسر الزجاج في الشبابيك والبلكونات، وتترك رائحة البارود.

التيار الكهربائي لم يكن قد قطع بعد، نتابع الأخبار عبر القنوات الفضائية، خبر عاجل «صواريخ اسرائيلية على حارة حريك، وقصف جسر الضاحية».

ننتظر أمام الشاشة.. «قصف مدارج المطار.. قصف محطة الكهرباء».

تنقطع الكهرباء عند السادسة الا ربعا، ندرك أن العزلة بدأت وأن المغادرة صارت قسرية..

ساعات قليلة على ضوء النهار، يحسم أمر مغادرة الضاحية، في السادسة والنصف صباحا، الشوارع مقفرة تماما من السكان إلا من بعض موتسيكلات يقودها شبان «حزب الله» يتم تمييزهم من التي ـ شيرت الأسود التي يرتدونها.

يبدو العثور على سيارة لمغادرة المكان أمرا في منتهى الصعوبة.

تحت جسر الضاحية الذي تم قصفه صباحا تجمع بعض الأهالي، ينظرون نكبتهم، ويتفرجون على خراب البلدة.

المحلات التجارية مهدمة، السوبر ماركت الكبيرة بجانب جسر الضاحية صارت رمادا، وبعض السيارات التي كانت مركونة بجانبه باتت حطاما، أما البيوت المجاورة فلم ترحمها شظايا الصواريخ من التهدم.

عاد كل شيء الى الوراء أكثر من عشرين عاما، من عايش حرب بيروت في 1982 يتأكد أن المأساة تتكرر مرة أخرى، وأن الحكاية أبعد من جنديين تم أسرهم.

هل الزمن بعيد بين الحربين.... بين ذاك الاجتياح، وهذه الحرب التي تقضي على الأخضر واليابس؟

هل هنيء الشعب اللبناني بحياته منذ ذاك الزمن؟

هل عاش سنوات هادئة بلا خوف، أم كانت ذكرى الحرب تستعاد عند أي اضطراب صغير من الممكن حدوثه في أي بلد؟

زمن بين حربين كان الشعب اللبناني خلاله يبني ويرمم ويدفع اقساطا ويتحايل على الحياة لكي يعيش، ولكي يبني مدينته المحترقة والمتهدمة.

* * *

فجأة تختصر أشياء الإنسان الضرورية الى حاجيات قليلة ملمومة في حقيبة صغيرة، حقيبة بحجم كيس متوسط تضم الأشياء الضرورية فقط.....معي حقيبتي وكمبيوتر محمول عليه النصوص التي اكتبها، هكذا اختصرت الحقيبتين الكبيرتين اللتين أتيت بهما الى بيروت الى حقيبة صغيرة وكمبيوتر .....ويمر تساؤل عابر كيف يتمسك الانسان بأشياء كثيرة لا يحتاج لها، فيما في الواقع وفي اللحظة الحرجة لن يهمه سوى فعل «الحياة» نفسه، أن يكون قادرا على العيش وحسب.

بعد ساعة تم العثور على «ميني باص» اشترط السعر مضاعفا ثلاث مرات للشخص الواحد، يعرف السائق جيدا أن هذا السلوك ليس مهما في زمن الحرب لأن ما يهم الناس هو النجاة من الصواريخ المتساقطة فوق رؤسهم، ونعرف نحن أن هذا عادي وغير مفاجئ حتى لو كان في اليوم الثاني لبدء الحرب، بل من الممكن أن نتعاطف مع السائق وأن تبادر أمي في الدعوة له ولأمثاله، هكذا صار السائق المدعو له بالسلامة يحاول الخروج بنا من الضاحية التي بدت معظم معابرها مقطوعة، وبعد تجول لأكثر من نصف ساعة بين الطرق المدمرة تمكنا من العبور نحو «كنيسة مارمخايل» التي تم قصفها أيضا عند الصباح، لكن خطة الوصول الى «البقاع» لم تنجح وما أن وصلنا الى «عالية» حتى طلب منا حاجز للجيش اللبناني العودة لأن طريق «ضهر البيدر» مقطوع.

نعود الى بيروت، بلا وجهة معينة. الهاتف الخليوي ما زال يعمل، بعض الأصدقاء يطلبون منا الوصول الى منطقة «طريق جديدة» حيث يسكنون، وحيث سيساعدوننا في إيجاد بيت للسكن. هكذا نعي في تلك اللحظة أننا صرنا مهجرين، بين ليلة وضحاها أجبرنا على مغادرة بيتنا والتحرك بلا قبلة معينة، وأنه ليس أمامنا سوى التحرك بحثا عن مكان للنجاة.

* * *

في «طريق جديدة» كان الناس أقل خوفا، الشوارع اقل قفرا، وبعض المحلات المختصة بالمواد الغذائية تفتح أبوابها، فيما الناس يقبلون على شراء الأغذية والخبز والمعلبات بشكل مكثف يتزودون بما هو ضروري لمثل هذه الأوقات خشية من أن يضطروا الى التزام منازلهم أو الطوابق الأرضية «الفاكهاني» «طريق جديدة» و«الجامعة العربية» مناطق كانت فيما مضى معقلا للمقاومة الفلسطينية، وبدا الناس أكثر مرونة في الاستعداد للحرب، الكهرباء لم تنقطع تماما خلال ساعات النهار، وفي الأوقات التي قطعت الأهالي عادوا للتجمع حول تلفزيون يعمل على بطارية السيارة، أو راديو صغير لمتابعة الأخبار، على مدار اليوم يستمر القصف متقطعا على الضاحية ،أصوات الطيران المحلقة في الأجواء مسموعة بشكل واضح، وفي حوالي الثامنة مساء يرد خبر «تدمير حزب الله لبارجة اسرائيلية» الناس في «طريق جديدة» تدعو لنصر حزب الله. تتصاعد وتيرة القصف على الضاحية ثم خبر قصف اسرائيل لمنزل السيد حسن نصرالله وقصف خزانات الوقود في المطار وجواره.

في الليل عند العاشرة غارات على منطقة «الكولا» و«السفارة الكويتية» وأخبار عن تهديم معظم جسور العاصمة.

من بيروت الشرقية تتصل بي إحدى الصديقات للاطمئنان على سلامتنا، أسألها عن وقع الحرب في بلدتهم، تخبرني عن سلامة المنطقة من القصف لكنها تخبرني أيضا عن خوف الناس وعن إقبالهم على شراء السلع الغذائية بكثافة، تخبرني أنهم يلومون «حزب الله» لأنه قاد البلاد الى حرب. لا أستغرب لطالما كان اللبنانيون منقسمين في آرائهم وقراراتهم حول البلد.

أقفل الخط، أرى السواد يتسع على الأرض، ورائحة البارود تنتشر في ذرات الهواء، يبدو الزمن الهادئ الذي حلمت به شيئا سرابيا.....لا شيء الان غير الحزن والخوف ...

موجع للغاية أن تكون شاهدا على الدمار.....

والأكثر وجعا أن تكون شاهدا على الموت وعلى خراب مدينة كانت قبل يومين تحتفي بك وها أنت الآن تشهد موتها، يداك مهدلتان بلا حراك، تنظر حولك بجزع، عاجز عن أي فعل سوى انتظار ما سيحدث.... الانتظار والانتظار الحارق فقط.

* كاتبة من لبنان

تداعيات

آيسلندة ـ ريكافيك: نحن نكره الأجانب لكننا نحب الفلسطينيين

حسين سليمان *

■ لم أكن أعرف هذه الجزيرة إلا على الرسم. وضعها الله نقطة في الشمال قريبة من القطب حيث تعتاش على صيد السمك وعلى موقعها الذي أخذ يستأثر باهتمام بعض الدول الأوروبية. حين حطت السفينة التي نقلتنا من مرفأ هيوستن رحالها في عاصمة آيسلندة «ريكافيك» كانت الساعة حوالي الثانية عشرة ليلا حيث الشمس مشرقة أو تلعب لعبتها الأبدية في المغرب، ترف هناك من دون نزول وراء الجبل الذي يلفه الضباب. هذه المنطقة تبزغ من سحر «كان يا ماكان» فهي ليست على أرض

الواقع بل كأنها في صفحات طلسم تمس الخيال وتدغدغه.

الشمس تنير تمثالا لرجلين يشيران نحو المحيط وحولهما سيدة تأخذ صورا تذكارية. الوجوه في تلك الساعة منتفخة متعبة تتحضر للنوم. والشمس لم تكن شمس صباح بل هي أيضا متعبة ومرهقة بالإنارة.

العالم هنا مختلف، لا أحد ينكر ذلك، لكن الاختلاف هو اختلاف مع السيرورة. كأنني عدت بل عدت إلى زمان فيه هدوء وفيه أيضا حساسية مرتفعة ضد تدمير العالم.

هل استطيع أن اكتشف هذه الجزيرة في يومين لا أكثر. مشيت عند ساعة مشرقة، كانت الشامنة ليلا وكانت الطرق الضيقة مسحورة. الظلال تنتقل وتبادل أمكنتها، أما التماثيل المقامة على الأرصفة فتقول إشراقة فن يعرض انكسار الانسان.

من بعيد، أتمشى وحيدا خلال الرياح العذبة ـ درجة الحرارة 13 مئوية، وهي حرارة الصيف، وهناك في الشارع رنين يغلفه الصمت.

والضوء، طريقة الضوء تبعث الشعور بالغرابة وبأن العالم مخلوق بين زمانين.

تمثالان لرجلين ينظران نحو بعضهما بتأمل عارض فيه تساؤل عن شيء اختفى وتلاشى. وتقودني خطواتي من دون أن أدري ـ بإحساس غير مدرك ذلك كما قالت ماريا حين دخلت المقهى التي كانت جالسة فيه.

من بعيد سمعت غناء مصريا فهززت رأسي قائلا: هذه مصر تلاحقني بأغانيها؟

لم يكن هناك بد. فلقد أصابني انطفاء وإغماء ذلك لأن الصوت والموسيقى والفن، كلها صوت عربي واحد وعلى بعد درجة سلم واحدة.

كانت الموسيقى تدلق من نافذتي المقهى الذي يصعد درجتين عن الشارع، وهناك ألوان ورسوم وتجل. موسيقى العود والدربكة والجنبش والناي. والطرب العربي ماذا يفعل في هذه الأرض البعيدة الغريبة؟ ربما المكان للبناني أو لمصري.

لكن لا رائحة لعربي. كان المكان مقهى «أرض الوطن ـ هوم لاند كافي» يخدم القهوة الفرنسية والكابتشينو والعصير وحلويات الكعك. لا وجه عربيا واحدا.

كلهم آيسلنديون وبعضهم يحمل وجها أوروبيا «بولندا والنرويج» طبيعة الغجر الصاعدة نحو سماء غير موجودة. كان هناك رقص انتبه في لحظته الأخيرة، فتوقفت قليلا الراقصة الشابة حين رأتني أدخل، أو تخايلتْ أنها توقفت ورهنت أجزاء الثانية للدهشة التي غمرتني. ثم تابعت وكانت وقفتها حالة فنية ذكرتني بصباح فخري حين يترك فجوات بين الأغنية كي يقف الزمان كله، ذكرتني أيضا برقص نجوى فؤاد...

حين أرى راقصة عربية على المسرح أجد في تعابير وجهها أقنعة لا تتصالح مع الفن بقدر ما تتصالح مع إغراء الجسد ومحاولة منحه للمشاهد. أما هنا، فهي شابة لم تنه المدرسة الثانوية بعد، تهز وتتمايل وفي رأسها الصغير كلمة واحدة: إجادة الرقص العربي. كانت ترقص وتدمدم احرف أغنية ~~مصرية لا تفهمها. لم أتعرف على~~ المغني، فهي لأحد الشباب. لكنها أغنية مؤثرة في حالة الوحدة والغربة.

«فالا» ترقص وتنظر إليها «سيروس».

قالت «فالا» إنها تعلمت الرقص العربي منذ سنتين مع صديقتها «سيروس» وتحب أن تتعلم بعد ذلك اللغة العربية. لكن ماذا يعني كل ذلك سوى أنها رغبة تغيير ومحاولة اختلاف.

لا مانع، فنحن أيضا نحب أن نرى العالم الآخر ونختبره.

المرأة في ايسلندة لا تعرض انوثتها، أو أن قضية المرأة والرجل غير موجودة مقارنة مع أوروبا أو حتى مع أمريكا. فالحرية للطرفين وبنفس السوية. تجتهد المرأة في تأمين المعيشة وتواجه ظروفا صعبة قاهرة كي تثبت أنها قادرة على الحياة، كند للرجل.

إلا أن الطرفين يواجهان صعوبة الحياة ذلك بسبب قلة الموارد والأسعار الباهظة غير المعقولة.

كانت في المقهى شابة غريبة المظهر قالت ان اسمها هو ماريا، تطلب أن أجلس إلى طاولتها وتقول لي أنت ثالث رجل ألقاه هذا اليوم يحاول تحطيم الطبيعة دون أن يشعر! فسألتها الإيضاح وكيف تقولين ذلك وأنت لم تتعرفي بي؟

كل عمال التقنية وكل من يبني مدن هذا العصر الغامض، يحطمون أكثر مما يبنون. كانت حدسية تتبع روح الطبيعة وسحرها. علينا أن نتبع أثر الحدس والطبيعة الأم. ولقد آن الأوان كي يبزغ مرة أخرى النور، لقد تعبنا، تعبت الأرض من حال الظلام وهنا في هذا المكان قد بدأت مظاهر التبدل!

لقد ظننت أنها من جماعة الغجر المنجمين الذين يقرأون البخت، لكنها ليست كذلك، لقد تركت عملها في كاليفورنيا وذهبت لسنتين إلى الهند كي تختبر لحظات التحول النفسي الذي داهمها وهز كيانها في لحظة تأمل: هناك تيارات داخلية تأتي من كل انحاء العالم تتحد وتلتقي هنا في «ريكافيك» ولهذا السبب اخترتها وتركت كاليفورنيا.

طبعا كلامها لم يقنعني لكن طاقتها وإيمانها هما ما جعلاني اهتم بما قالته، كانت تقول بسيرورة نهاية حضارة ونهاية عالم من اجل بداية جديدة. التيارات الأرضية ـ الـ DNA يجب أن يتغير ولقد آن الاوان!

في مكان قريب من المقهى كان هناك صوت غناء البوب يقرع بقوة، صوت يملك خبرة الغناء وحساسية الموسيقى. فدخلت، كانت فاصلة استراحة حين توقف المطرب «بودي» وفرقته Touch وسأل الحضور إن كان هناك بينهم أجانب. فرفع البعض يده مبتسما، أما هو فقد أجاب قائلا وبوحشية فنية: نحن نكره الأجانب، نكره الأجانب، ثم رفع رأسه نحو الأعلى كي يقول: لكننا نحب الفلسطينيين!

لقد قدم أغنية لم احصل على كلماتها أهداها إلى امرأة فلسطينية حامل ذهبت ضحية حين وقفت أمام جرافة اسرائيلية.

كان يتكلم بل يغني بحرقة وبجنون.

هذه الطاقة لم تأت من عبث، ليست طاقة مراهقين بل هي طاقة مسيّرة تحملها نفس سرية، رحت أؤمن بكلام ماريا: هنا يبدأ التغيير، تبدأ تيارات غير مرئية بقلب روح العالم المظلم وجعله مرة أخرى منيرا. لقد آن آوان الربيع وحان وقت الصحو!

* كاتب من سورية يقيم في امريكا

قصة قصيرة

العروس الجميلة

محمود قتاية *

■ كانت أجمل عروس في بلدتنا الصغيرة، وهي برغم أن الرجال كانوا يعشقونها، ويقفون أمامها طويلا يتأملون حسنها، فإنه لم يكن هناك في البلدة وعرضها من تغار منها! بل على العكس، كانت كل فتاة أو امرأة تتمنى أن يزيد حب الرجال لها.!

في الشتاء كانت تتدثر بأثواب من القماش الشعبي «الكستور» أو الصوف المتواضع ومع ذلك كانت تحظى بالإطراء والثناء من كل من يشاهدها من الرجال والنساء، ويصبح الثوب الذي تلبسه هو موضة الموسم في بلدتنا الفقيرة.!

في الشتاء الماضي كانت تلبس فستانا من الصوف وهي تجلس داخل ثلاجة ضخمة ممسكة بيدها لافتة تقول «حتى لو قعدت في ثلاجة، أنا فستاني مدفيني!».

وفي الصيف وقفت تحت وهج مصباح باهر الضوء مستظلة بشمسية أنيقة، وكانت تلبس ثوباً أبيض وهي تحمل بيديها أثوابا ملونة، مزينة بالورد والفل والياسمين.

كانت ثمة مروحة تطوح شعرها الحريري، وخلفها لافتة تقول:

«فستاني من قطن بلادي، بيخلي الهوى هوايا»

كانت أجمل حتى من عروس النيل التي يحكون عنها، والتي لم يرها أحد، فحظيت بالمعجبين والمعجبات.!

ليست من فساتين الصيف وفساتين الشتاء أكثر من كل الفتيات، ومع ذلك لم تحقد عليها فتاة أو امرأة، كلهن أحببنها وبالذات بنات بسطاء الناس.!

كانت عادلة في محبتها، توزع بسماتها على الجميع، لم تضق يوماً بالتزاحم عليها، بل إنها كانت توزع عليهم إيماءاتها بالتساوي مرحبة بالشبان والفتيات، بالرجال والنساء، بالآباء والأمهات.

والغريب، وهي العروس الجميلة التي ترحب بالجميع، أنها رغم شهرتها تلك كانت بلا اسم.!

والحق أنها لم تكن في حاجة إليه! فالكل يعرفونها هي النجمة التي تضيء من بعيد وتؤنس في ليالي السهر حتى لو غاب القمر! تناجيها العيون، وتهفو إليها القلوب، هم يعرفونها، هي الحبيبة، الطيبة، بنت الحلال، من تلبس للبنات فستان الصيف وفستان الشتاء، كما تلبس لهن فستان الخطوبة والزفاف، لتصبح أي فتاة تلبسه فتاة الأحلام وعروس الموسم.!

وهي مع ذلك كله، كانت تعلن عن رخص ثمن فستانها، ليكون في مقدور الجميع شراؤه!!

وقفت يوماً، وقد غطت رأسها بطرحة بيضاء، وتدثرت بملابس الإحرام، وجهها كان صافياً، كنا في شهر ذي القعدة وموعد أداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام يقترب.

في ذلك اليوم شوهدت الخالة زهرة، بائعة الخضار في سوق البلدة تقترب منها. همست الخالة: «نفسي أزور النبي يا طيبة، نفسي ألبس ملابس الطهر والعفة اللي انت لابساها، إنت أدرى باللي في نفسي، أنا بعد ما جوزت بنتي اللي طلعت بيها من الدنيا، عايزة أروح لربنا وأنا مغسولة من تراب السوق وذنوب البشر! وأنت عارفه اني بحوش مصاريف الحج وثمن الكفن، انت عارفة أن فلوسي حلال والحمد لله!». وراحت الخالة زهرة تتأمل ملابس الإحرام، وعادت تهمس: «أنا مش حالبس إلا زيك، هدومك دايماً نضيفة، وطاهرة يا أصيلة» مضت السنون، العروس الجميلة تقف، تجلس، تلبس ثوب الصيف، تلبس ثوب الشتاء، تحمل فانوس رمضان أو حقائب أطفال المدارس، تشير الي بوتاغاز، تطل من شاشة تليفزيون، تحمل سنبلة أو كتابا، ترفع راية الوطن، هي في كل الأحوال تستحوذ على محبة الفقراء والبسطاء، تستحوذ على نظراتهم وخفقات قلوبهم، وتقرب إليهم أحلامهم!

إلى أن جاء يوم، كان يوما غائماً، صباحه بلا شمس. في ذلك اليوم احتشدالناس أمام العروس، وكل قادم إليها حين يشاهدها يسأل:

ما الأمر.!؟

تجمع السائلون، استثارهم ما رأوه رأي العين.!

كانت الفتاة تقف عارية تماماً، شعرها منكوش، ذراعها مكسورة، ورأسها منتكسة.!

سألت امرأة: من فعل بها هذا.!؟

وضعت تلميذة يدها فوق عينيها، بعد أن رأت ما رأت.!

قال رجل عجوز: حرام أن يحدث هذا.!

لكن الخفير الكهل الذي يحرس المكان، وقف شاردا وهو ينظر الى المحتشدين ثم إلى الفتاة العارية.!

وأمام الجميع، بدأ يخلع معطفه، وسترته، ثم قميصه، وبقي بالسروال، دخل إليها، ألبسها القميص فالسترة فالمعطف، أمسك رأسها، سوى شعرها، ثم أدارها في مواجهة المتجمعين.

رأى الناس وجه العروس مشوهاً، بحثوا عن ألق العينين الجميلتين.!

لم يجدوا غير حفرتين بهما رماد.!

تقطبت الوجوه، غامت العيون، ترامت الهمهمات كصخب الموج الثائر، وشبت امرأة مغضنة الجبين من بين المزدوجين، كانت الخالة زهرة!

وأثناء كان الخفير الكهل يقف عاري الصدر، كانت الخالة ترمقه، وحين تحرك وراح يمسح على جبين المانيكان، رمته الخالة بنظرة مفعمة بالامتنان والعرفان.!!

* قاص من مصر